

الإفتاء والمفتون في العهد العثماني

عند أبي القاسم سعد الله

الهوارجي ملاح طالب وكتوراه جامعة وهران 1 أحمد بن بلة

أ.ر بن نعمة عبد المجيد جامعة وهران 1 أحمد بن بلة

الملخص

تناول البحث مقتطفات من كتابات أبي القاسم سعد الله -رحمه الله- في موضوع الإفتاء والمفتين في الجزائر خلال العهد العثماني.

واعتمدنا في ذلك على أهم الكتب والدراسات والأبحاث - وما أكثرها- فقد كانت السمة الدينية من أهم السمات في تشريعات الخلافة العثمانية، والتي مع اعتمادها المذهب الحنفي مذهباً رسمياً، إلا أنها لم تغفل خصائص الأمة الجزائرية ذات المذهب المالكي.

ومن المصادر التي اعتمدها الأستاذ سعد الله في كتاباته عن الموضوع رحلة أحمد بن عمار الجزائري الذي عاش خلال القرن الثاني عشر الهجري وتولى منصب مفتي المالكية.

وتناول أيضاً العلاقات بين علماء الجزائر وعلماء اسطنبول، أفادنا من خلالها على نوازل هامة كانت حديث الساعة في الجزائر.

ومن المسائل الرئيسية التي فصل فيها الأستاذ سعد الله أيضا، حديثه عن أشهر الأسر العلمية الجزائرية التي تداول رجاها منصب الإفتاء، كأسرة العنابي، أسرة الفكون،...

Abstract

This research concerns the writings of Abu al-Qasim Saad Allah on the subject of Fatwa and muftis in Algeria during the Ottoman era.

The Hanafi school was the official doctrine, but the Maliki school followed by the Algerians was not ignored. In his writings Saad Allah relied on the book of the Algerian Ahmed Ben Ammar, who lived in the 18th century. Ones of the major muftis highlighted by Saad Allah was El Annabi and the family of Alfakon..

يعتبر موضوع البحث كقطرة من بحر مما كتبه شيخ المؤرخين الجزائريين الأستاذ أبي القاسم سعد الله، الذي وإن لم نكن من تلاميذه المباشرين فإننا نتلمذنا عليه من خلال ما كتب ونشر في مجلدات وكتب ورسائل ودراسات وأبحاث وتحقيقات، ولذلك يمكن القول إن أبا القاسم سعد الله هو معلم وأستاذ لكل الطلبة الجزائريين الذين تخصصوا في التاريخ بكل أقسامه وتاريخ الجزائر بصفة خاصة.

سمعنا الكثير عن حديثه وثقافته من بعض الأساتذة الذي تتلمذوا عليه. وأذكر مرة عندما كنت طالبا في جامعة الأمير عبد القادر سنوات 1991، 1992 رفقة بعض الطلبة ومنهم نجيب بن خيرة كنا مع الأستاذ خليفة حماش وكان

يتحدث لنا عن الدكتور أبي القاسم سعد الله فقال إنه مشغل دائما في البحث والاتصال به عن طريق الهاتف لا يمكن إلا بعد منتصف الليل.

لم يكتب الدكتور سعد الله عن رجال الإفتاء في مؤلف بعينه من مؤلفاته بل نجده تطرق للموضوع في أكثر من كتاب ولا يسعنا هذا البحث في الإلمام بكل ما جمعه رحمه الله حول هؤلاء الأعلام وما صدر منهم من مواقف واجتهادات أثناء أداء مهامهم في ظروف أقل ما يقال عنها أنها صعبة للغاية لأنها كانت تحت هيمنة الإدارة الفرنسية الاستعمارية.

كتب أبو القاسم سعد الله عن الموضوع في مؤلفاته التاريخية المتنوعة، نجده تطرق له في كتابه أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر وأيضا في كتابه الموسوعة تاريخ الجزائر الثقافي، وخصص كتابا بعنوان: المفتي الجزائري ابن العنابي كما نشر بحثا تخص بعضا من رجال الإفتاء مثل: الشاعر المفتي ابن الشاهد واحتلال الجزائر، وقضية ثقافية بين الجزائر وفرنسا تطرق فيها لشخصية المفتي الجزائري محمد بن الكبابي، وغيرها من الأبحاث.

وقد تناول الموضوع من زوايا متنوعة حسب ما ورد في الوثائق والمصادر التي تمكن من جمعها من مشاربها المختلفة، في مقدمتها أرشيف ما وراء البحار "أكس دي بروفنس"، ومن مخطوطات في الفقه والتاريخ والأدب، ومن رسائل لعلماء ومؤرخين وباحثين مثل المؤرخ الشيخ المهدي البوعبدلي والأستاذ

عبد الله ركيبي، علي أمقران السحنوني وغيرهم من الشيوخ والأساتذة الذين تبادل معهم الرسائل في قضايا مختلفة.

لقد كانت السمة الدينية من أهم السمات التي اتسمت بها تشريعات الدولة العثمانية في معظم تصرفاتها ومشاريعها، فقد كان للهيئة الدينية وضع معترف به ومنصب أساسي، وكان يطلق على رئيسها " المفتي " أو مفتي استانبول، ثم تغير هذا اللقب إلى "شيخ الإسلام"، الذي كان يشرف على الهيئات القضائية والهيئات ذات النشاط الديني، وكان السلاطين أنفسهم حريصين على تدعيم سلطته ويعملون على استغلالها كلما أهمهم أمر أو تصدوا إلى مشروع خطير، كان المفتي يصدر فتوى تجيز الحرب دفاعا أو هجوما، وعقد الصلح وغير ذلك من الأحداث الجسام.(1)

وقد اعتمد العثمانيون المذهب الحنفي مذهباً رسمياً للدولة ولعب المفتون في استانبول، وفي مراكز الولايات - كالجرائر - دوراً هاماً في مختلف المجالات، وكانت الأولوية في بدء الدولة العثمانية للقاضي عسكر، ثم أصبح المفتي رئيساً للعلماء في عهد السلطان سليمان القانوني (1495-1566)، وكان حمله لقب شيخ الإسلام مبنياً على الدور الذي لعبه في التوفيق بين القوانين التي أصدرها سليمان القانوني وبين الشريعة، وكان يحق لمفتي استانبول إصدار فتوى بعزل السلطان نفسه، كما أنه هو الذي يعين المفتين في مراكز الولايات، أما المذاهب الأخرى فقد تركت الدولة العثمانية لأفرادها حق اختيار مفتيها من بينهم.(2)

تناول الشيخ سعد الله موضوع الإفتاء ورجاله في العهد العثماني من المخطوطات والمصادر ومنها كتب الرحلات؛ كرحلة أحمد بن عمار الجزائري الذي عاش في القرن الثاني عشر إلى بدايات القرن الثالث عشر وكان مفتيا صاحب رأي واجتهاد في الدين والاجتماع من أشهر العلماء الذين تصدوا لمنصب الإفتاء في العهد العثماني، حج سنة 1166هـ/1750م وجاور بمكة مدة طويلة وصلت إلى سنة 1172هـ/1756م. تولى وظيفة الفتوى على المذهب المالكي سنة 1180، ولم يدم ذلك إلا بعض الشهور، ثم تولى مرة أخرى سنة 1180هـ/1764م أيضا وظل في الوظيفة إلى سنة 1184هـ/1768م، وقد خلفه في منصب الفتوى في المرة الأولى عبد الرحمان المرتضي وفي الثانية محمد بن جعدون.(3)

وله تأليف أهمها: "لواء النصر في فضلاء العصر" ترجم فيه لعلماء القرن الحادي عشر، وأوائل القرن الثاني عشر، واشتهر برحلته المسماة "نحلة اللبيب في أخبار الرحلة إلى الحبيب". وذكر لقاءه بأبي راس الناصري عندما مر بالجزائر وهو في طريقه إلى الحج سنة 1204هـ/1788م من خلال مذكرات أبي راس.(4) وتناول في بحث تحت عنوان: "بين علماء الجزائر وعلماء اسطنبول" لقاء بعض العلماء الجزائريين برجال الإفتاء في مدينة اسطنبول عاصمة الخلافة الإسلامية منهم الشيخ يحيى الشاوي النائلي (1030 - 1096هـ) (1621 - 1685م) أخذ العلم في الجزائر ثم توجه إلى المشرق وحج، ثم قصد اسطنبول

واتصل بعلمائها، ومنهم المفتي يحيى المنقاري، واطلعوا على بعض كتبه وأجازوه... وهاجم الشاوي أحد كبار العلماء وهو نور الدين الكوراني وحكم عليه بالزندقة وقد سمى رده هذا على الكوراني "النبل الرقيق". (5) وبالرجوع إلى صاحب معجم أعلام الجزائر الذي ترجم للشيخ يحيى الشاوي وجدنا عنوان الرد كاملا وهو: "النبل الرقيق في حلقوم الساب الزنديق". (6)

وفي مخطوط محمد السنان لعبد الكريم بن الفكون قصة ذات مغزى ومن خلالها استنبط أبو القاسم سعد الله خبرين أحدهما علمي والآخر سياسي، فهي تروي خبر الوفد الجزائري إلى اسطنبول تحت إمارة الشيخ أبي الربيع سليمان الأوراري - من علماء الجزائر - في مهمة كلفه بها جيش الجزائر ومفتيها، ويتساءل الأستاذ سعد الله - كعادة المؤرخين الكبار - ولا ندري تاريخ هذه البعثة الرسمية، ويستدرك بالقول إن الفكون - صاحب المخطوط - ألف كتابه المذكور حوالي سنة (1037هـ / 1627م) وتساءل أيضا عن المقصد من المهمة التي كلف بها الوفد الجزائري؛ هذا عن الخبر السياسي.

أما الخبر العلمي الذي ذكره الأستاذ سعد الله تمثل في اجتماع الشيخ سليمان الأوراري بشيخ الإسلام - مفتي اسطنبول - في ذلك الوقت واسمه محمد بن سعد، وسؤاله عن رأيه في نازلة الدخان وحكم شربه، حلال أم حرام، وقد ورد استفتاؤه في حلة جميلة حيث نظمه في قصيدة شعرية، جاء فيها:

أيا من بات في رتب المعالي رئيسا حائزا غر الكمال

ويا بدر المعارف والعلوم
ومن قد صار في المعقول صدرا
فمن يملك نقبس المعاني
ابن لي مقصدا قد حرت فيه
رأيت الناس قد جنحوا لبلوى
دخانا يشربون لكل وقت
أفي المكروه يدخل شاربه
فقل بالحق إذ من شاء يؤمن
فإننا نفتفي فتواك حقا
ويا بحر العوارف والنوال
وفي المنقول قطبا للرجال
ومن عليك نلتمس المعالي
وأوضح لي معالم من سؤالي
وهي والله مفسدة الوبال
وعم الخافقين على التوالي
جهارا أم حرام أم حلال
كما أفتيت أو يكفر بحال
ونترك ما عداه ولا نبالي

وقد أجابه المفتي محمد بن سعد بأبيات على نفس البحر والوزن، محرما
فيها تناول الدخان على العموم قائلا على الخصوص:

وأما بعد يا أهل السؤال
سألت عن الدخان بحسن نظم
تيقن ليس فيه غير ضرر
وما فيه سوى إتلاف مال
هداك الله في هذا المقال
بديع في اللطافة كاللثام

يقول الأستاذ سعد الله "ويهمنا هنا أن الشيخ عبد الكريم بن الفكون قد
قدم لجواب المفتي محمد بن سعد على سؤال الأوراري بقوله: "وأجاب عن

المسألة الشيخ الفقيه، العالم التحرير الصدر الشهير مفتي اسطنبول، عمرها الله بالعلم والتقوى، وأزاح عنها بمنه وكرمه عوارض البلوى." (7)

وفي موضع آخر من البحث تكلم عن أبرز العائلات العلمية التي حلت من اسطنبول إلى الجزائر في العهد العثماني وهي عائلة ابن العنابي، والظاهر - كما قال الشيخ سعد الله- أن أصل هذه العائلة من اليونان وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على نشاط العثمانيين في نشر الإسلام بأوروبا. ومن أشهر أبناء هذه الأسرة الشيخ المفتي محمد بن محمود العنابي.

ويحدثنا الأستاذ أبو القاسم سعد الله عن أبرز العائلات العلمية التي حلت بالجزائر من اسطنبول ومنها عائلة ابن العنابي التي استقرت بعنابة حيث اكتسبت لقبها، ومنها انتقلت إلى مدينة الجزائر حيث مركز السلطة وتولت الوظائف الدينية العليا كالقضاء والفتيا. ومن أبرز أبنائها العلماء الذين تولوا منصب الإفتاء محمد بن محمود ابن العنابي، الذي أفتى كثيرا في مسائل العصر، وألف كتابا هاما في موضوعه وهو ضرورة منافسة الأوروبيين في تقدمهم الصناعي والتقني والعسكري وهو كتاب "السعي المحمود في نظام الجنود" وطالب سلاطين آل عثمان بتجديد الدولة وإصلاح النظم الإدارية، كما أيدهم في القضاء على الانكشارية وفي حادثة تاريخية مشهورة سنة 1233هـ/1816م حين ضرب الأسطول الإنجليزي الجزائر بعث الشيخ محمد ابن العنابي من قبل الداوي عمر إلى

السلطان العثماني محمود لمقابلة مفتي اسطنبول وبعض علماء الباب العالي طبقا للمراسيم المتبعة عندئذ. (8)

وفي قسنطينة كان منصب شيخ الإسلام منحصرا في عائلة الفكون منذ القرن العاشر وكان مقدما على جميع العلماء وله مكانة روحية وسياسية يستطيع بها أن يسقط البايات وأن يحمي الهارين إليه من الحكم بالإعدام. وبالإضافة إلى ذلك كان شيخ الإسلام معفى من الضرائب وكل الالتزامات المالية. (9)

ومن القضايا التي أدلى فيها المفتون في العهد العثماني قضية اليهودي الذي تناول على الرسول صلى الله عليه وسلم فقد أفتى فيها الشيخ عبد الكريم الفكون (الجد) (ت988هـ/1580م) بقتل اليهودي رغم حماية السلطة في قسنطينة له. كما أفتى أيضا الشيخ محمد الولي الحنفي بإحراق اليهود والنصارى إذا أعلنوا سب الرسول صلى الله عليه وسلم، معتمدا في ذلك على مجموعة من الأحاديث والروايات التاريخية وقد وضع رسالة في ذلك سماها "السيف الممدود في عنق من أعان اليهود". (10)

ويعد الشيخ أبي محمد عبد الكريم بن محمد الفكون (الحفيد) (ت1073هـ/1662م) من أشهر رجال الإفتاء بالجزائر العثمانية، أسندت إليه الإمامة والخطابة بالجامع الأعظم بقسنطينة خلفا لوالده، من مؤلفاته كتاب: "منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية"، و"محدد السنن في نحر إخوان الدخان" (11)

ومن العلماء الذين تولوا منصب الإفتاء بالجزائر العثمانية الأمين بن علي بن عبد القادر بن عبد الرحمان، مفتي مدينة الجزائر وعالمها ومسندها في وقته، أندلسي الأصل. تعلم بالجزائر ثم بالأزهر الشريف بمصر، ثم تصدر للتعليم بالجامع الأعظم وأخذ عنه جماعة من العلماء.

ولي منصب الإفتاء المالكي بالجزائر ست مرات ما بين سنتي (1206-1233هـ) (1789-1816م) وله ثبت. (12)

ومن أهم آثاره في موضوع الإفتاء كتاب "المفتي الجزائري ابن العنابي" (1189-1267هـ) (1775-1851م) واسمه الكامل هو محمد بن محمود بن محمد بن حسين الجزائري وشهرته العنابي أو ابن العنابي، وكان على مذهب الحنفية، وأخبر الأستاذ سعد الله أنه وجد اسم جده الأعلى حسين بن محمد بن العنابي في قائمة المفتين الأحناف في الجزائر سنة (1148هـ/1735م).

والمفتي الحنفي في الجزائر العثمانية هو شيخ الإسلام الذي لا يفوقه في المترلة والاعتبار سوى الداوي أو رئيس الدولة. (13) عاش ابن العنابي عمرا حافلا بالإنتاج العلمي والاضطراب السياسي وقد أفتى في كثير من مسائل العصر وله تأليف وصفه الأستاذ سعد الله بالهام في ضرورة منافسة الأوروبيين في تقدمهم الصناعي والتقني والعسكري والأخذ عنهم في ذلك وتجاوزهم فيه وهو كتاب "السعي المحمود في نظام الجنود".

ومن المسائل التي وقف عندها أبو القاسم سعد الله ذلك الغموض الذي تعرضت له وظيفة المفتي الحنفي والتقلبات التي عرفتھا خلال السنة الأولى من الاحتلال الفرنسي مع عدم ذكر اسم المفتي المعني بالأمر.

فقد جاء في أخبار الحملة الفرنسية على الجزائر أن الداي حسين باشا قد عزل في آخر لحظة قبل دخول الفرنسيين المفتي الحنفي "التركي"، وعين بدله مفتيا عربيا من أهل البلاد آملا أن يكون ذلك سببا في التفاف الجزائريين حوله في مقاومته للجيش الفرنسي. وهنا يتساءل الأستاذ سعد الله فمن هو المفتي المعزول؟ ومن هو المفتي الجديد؟ هذه النقطة تظل بدون جواب أيضا.

ذكر هذا التساؤل بعد قوله: "ليس من المؤكد الآن أن المفتي الحنفي وقت دخول الفرنسيين للجزائر كان هو ابن العنابي، فقد عرفنا أسماء عدد من المفتين تولوا في الفترة القصيرة من (1251-1244هـ) (1828-1835م) من بينهم ابن العنابي مع إغفال تواريخ تعيين بعضهم." ولم يكتف بهذا الاهتمام بالموضوع فذكر أسماءهم بالهامش وهم: محمد بن عبد الرحمان، أحمد بن عمر بن مصطفى (سنة 1244هـ-1829م) ومحمد بن محمود ومصطفى أفندي.

ومن الفتاوى التي وقف عندها في محطات مختلفة ما دار بين العلماء من نقاش وجدال حول حكم الهجرة من الجزائر بعد الاحتلال، وأهم العلماء الذين شاركوا فيها بإسهاماتهم مثل مصطفى الكبابطي، ومحمد بن الشاهد، قدور بن رويلة، وعلي بن الحفاف. ونشرت عنها أخبار في تحفة الزائر، ونشر محمد بن

عبد الكريم نماذج في كتابه حكم الهجرة من خلال ثلاث رسائل جزائرية ومنها تلك التي أرسلها قدور بن رويلة إلى مفتي الجزائر مصطفى بن الكبابي (14). الفتاوى التي جاءت لتعارض القائلين بالهجرة والتي شجع عليها الفرنسيون، واشتهرت منها الفتوى التي حمل نصها الجاسوس الفرنسي ليون روش سنة 1842م إلى علماء القيروان والأزهر ومكة المكرمة. وكان متذكرا في زي مسلم واسم عربي.

فهذه وقفات عند أهم المحطات والشخصيات التي وقف عندها الأستاذ أبو القاسم سعد الله في تاريخ الإفتاء والمفتين في الجزائر في العهد العثماني والفترة الاستعمارية، وهو من المواضيع التي أبدع فيها، حيث تناولها في كتبه المختلفة، وفي مناسبات عديدة، ونجده تناول فيها جزئيات دقيقة وطرح تساؤلات عديدة تحتاج إلى إجابات، ويمكن للباحث الذي يتتبع مثل هذا الموضوع في مؤلفات أبي القاسم سعد الله ويجمعها، يستطيع أن يخرج منها بكتاب خاص بالموضوع.

الهوامش:

- 1- أحمد المرسى الصفصافي، الدولة العثمانية والولايات العربية، المجلة التاريخية المغربية، العدد ص 29، 30، السنة العاشرة، جويلية 1983، تونس، ص323.
- 2- عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون، دمشق، 1974، ص52.
- 3- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج2، ص244.
- 4- سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، ص183.
- 5- سعد الله، المرجع نفسه، ج3، ص199.
- 6- عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، ط3، 1403هـ/ 1983م، ص186.
- 7- سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج3، ص200.
- 8- سعد الله، المرجع نفسه، ج3، ص198. تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص85.
- 9- سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم بن الفكون، بيروت، 1986، ص. ينظر أيضا؛ تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، ص350.
- 10- سعد الله، المرجع نفسه، ج2، ص81.
- 11- لزغم فوزية، البيوتات العلمية بالجزائر العثمانية، ج1، ص523.
- 12- محمد أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ج2، ص476. أبو القاسم، مفتي الجزائر ابن العنابي، (1850/1775) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1977، ص20. وينظر؛ عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص24.
- 13- أبو القاسم سعد الله، المفتي الجزائري ابن العنابي، ص12.
- 14- قدور بن رويلة، رسالة إلى مفتي الجزائر، عدد الأوراق 8 ورقة، رقم المخطوط 1304. مصلحة المخطوطات، المكتبة الوطنية الجزائرية.